الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

الجمعة 30 ذو الحجة 1422 هـ 15 مارس 2002 العدد 8508

حتى لا نلدغ من هذا الجحر للمرة العاشرة

علي مغرم الغامدي *

مقالات سابقة للكاتب
إبحث في مقالات الكتاب

كلنا سمعنا او قرأنا ما تناقلته وسائل الاعلام مؤخرا عن مبادرة الامير عبد الله بن عبد العزيز حول مسودة اقتراح لحل قضية الخلاف الاسرائيلي الفلسطيني.
وعندما نستعرض فقرات الاقتراح فإنا لا نكاد نفاجأ بأي شيء جديد، فكل فقرة على حدة قد سبق ان تم تناولها هنا او هناك ونوقشت باستفاضة في وسائل الاعلام وفي دهاليز الحكومات شرقا وغربا، ولاقت قدرا مختلفا من القبول او الرفض من جهة او اكثر من ذوي العلاقة او حتى من غير ذوي العلاقة. فما الجديد في الامر ولماذا كل هذا الاهتمام. وما الذي جعل وسائل الاعلام العربية والاسرائيلية والدولية تولي هذا الاقتراح عناية فائقة وتناقشه بجدية لم نعهدها في معالجة مقترحات الحلول السابقة.

الجدة في مشروع الامير عبد الله تظهر في ثلاث نواح: اولا: في شمولية الحل، فالاقتراح يتجاوز القضايا الفرعية والجزئيات التفصيلية وتفتيت الحلول على مراحل ويبدأ من النهاية منطلقا من التصور النهائي للحل. فالمشروع في الشكل الذي ورد به وفي كليته المترابطة يقدم للعالم ولمنطقة الشرق الاوسط اول مشروع حل شامل ومتكامل، وبذلك فإنه يمثل تحديا جليا للدعاوى الاسرائيلية والنفاق المتعجرف بأن كل الذي تسعى اليه الدولة الصهيونية هو ان تعيش في امن وسلام مع كافة جيرانها. فاذا كان هذا الادعاء حقيقيا فهنا مربط الفرس وعلى اسرائيل ان تبرهن على صدق دعاواها.

وثانيا: في نهائيته، فهو كلٌ متكامل اذا تم الاتفاق عليه فلا مجال للمشادة في تنفيذه، وهو بطبيعته ينتهي بالامور الى الوضع النهائي الذي طالما ردده وطالب به الكثيرون من المعنيين بالامر، بل ومن غيرهم، بحيث اصبح التطلع الى مثل هذا الحل ضربا من الاحلام والتمني لدى كثير من دعاة السلام من الجانبين. ولطالما تهربت اسرائيل من هذا المنتهى بسلسلة لا تنتهي من المشاريع والتصورات والافكار والتفاهمات والخطط والاتفاقيات والمبادرات والمراسلات، ولا تنفك تغرق القيادات الفلسطينية في خضم هذه المتاهات وغياهب تلك المعميات. وبالتالي تضيع الايام والاشهر والسنون والفلسطينيون ومن ورائهم الحكومات العربية والشعوب العربية يلهثون وراء سراب خادع لم يكن إلا كذبا وخداعا ومغالطات من اول يوم فيه.

وثالثا: في خصوصية صاحب المبادرة وراعي المشروع، فالمملكة العربية السعودية كانت ومنذ البداية قلعة التمترس التي يتطلع اليها المخلصون من ابناء الشعب الفلسطيني ومن ابناء الامة العربية ومن ابناء الامة الاسلامية، وخاصة اولئك الذين لا حول لهم ولا طول. وظل هؤلاء طوال السنين ينظرون بعين الرضا للمواقف المبدئية المنصرة دائما للقضية الفلسطينية بمعزل عن الاستنفاع السياسي، بل كثيرا ما عانت المملكة ولا تزال تعاني من مواقف عدائية وحملات استعدائية لغرض النيل منها ومن قيادتها بسبب التزامها المبدئي بالمنافحة عن هذا الحق الواضح والالتزام في كل محفل بالتأكيد على مشروعيته الفطرية البسيطة، وان الحملة المسعورة الاخيرة التي اجتهتها وسائل الاعلام الصهيونية والمؤيدة للصهيونية منذ احداث الحادي عشر من سبتمبر لنموذج واضح لمدى نظرة الصهيونية العالمية للمملكة العربية السعودية والدور الريادي الذي تلعبه في المنطقة العربية وفي المحافل الدولية.

هذا كله يجعل الآذان كلها تصغي لما تقوله القيادة السعودية في هذا الصدد، البعض باستغراب والبعض الآخر باعجاب وآخرون باندهاش، ولكن الجميع يصغون باهتمام، ويترقبون الخطوة التالية، وهنا مصدر الخطر فينبغي ان لا نؤتى من هذا الثغر مرة اخرى، وينبغي ان لا نقع في هذا الفخ مرة اخرى، وعلينا ان نفكر بحذر وعلينا ان نفهم تركيبة العقلية الصهيونية ونمط تفكير القيادة الاسرائيلية ليكون تعاملنا على مستوى الحدث. ان ما نحن بصدده لأمر مصيري مهما بالغنا في وصفه فلن نوفيه حقه من الاهمية. انه من الخطورة بحيث يحدد هويتنا كأمة ويبلور شخصيتنا كشعب ويضعنا من درجات الكرامة حيث نختار لأنفسنا.

نظرا لقوة الاقتراح وجرأته واهمية مصدره وسلامة منطلقاته، ولا ارى حرجا في ان اقول ايضا وبساطته، فإن اسرائيل لا يمكن ان تتجاهله ولا شك انها فوجئت به، فقد اتى من مصدر لم تكن تتوقعه، وتجاهله سوف يعريها امام المحافل الدولية ويكشف زيفها للرأي العام، ولكنها ايضا وبلا شك لن تقبل به، وسوف تعمل على استيعابه واقتناص ما يمكن ان يصب في مصلحتها منه وتلقي بالباقي في سلة المهملات.
واتوقع ان تلتف حوله بالمداورة التالية: سوف تقول في البداية ان الاقتراح يتضمن نقاطا ايجابية وان استعداد الدول العربية، وخاصة المملكة العربية السعودية للاعتراف بدولة اسرائيل وتبادل العلاقات الدبلوماسية معها وتطبيع العلاقات الاقتصادية والثقافية مع اسرائيل لأمر جيد. واسرائيل سوف تبذل وسعها في التعاون لتحقيق ذلك. وتقول كم كانت تتمنى لو تم هذا منذ زمن بعيد، بل لا استبعد ان تذهب اسرائيل في عنجهيتها ابعد من ذلك وتنحي باللائمة على الدول العربية في ما حل بالمنطقة من نكبات وما اريق من دماء وما ازهق من ارواح لأن هذه الدول لم تبادر الى الاعتراف باسرائيل منذ زمن بعيد. اما الامور الاخرى فستقول اسرائيل ان بعضها غير قابل للنقاش مثل موضوع القدس الشرقية وعودة الفلسطينيين اللاجئين والمهجرين وذرياتهم الى قراهم ومدنهم التي ولدوا فيها او عاشوا فيها قبل ان تطغى دولة المهاجرين الصهيونيين على ارض فلسطين وتعمل بكل ما في وسعها على ازاحة السكان الاصليين واستقدام اليهود الصهيونيين ليحلوا

محلهم. والبعض الآخر من البنود الواردة في الاقتراح فسوف تقول اسرائيل انها معقدة وتحتاج الى مزيد من الدراسة والتفصيل وقد تتكرم وتوافق على زيارة لمبعوث للرئيس الامريكي ليدرس هذه الامور، ثم يذهب ويعود بعد فترة ويبدأ زيارة جديدة لتداول بعض وجهات النظر مع القيادات المهمة في المنطقة، ثم يختفي ليظهر مرة اخرى في زيارة ثالثة لوضع تصوراته حول وضع آلية لصياغة الاجراءات التي يمكن بموجبها ان يصار الى تحديد اطار مبدئي لوضع مسودة جدول اعمال للقاء تمهيدي بين ممثلين لاسرائيل وعناصر من السلطة الفلسطينية للتشاور حول تحديد اطر عامة لتلمس معالم ارضية مشتركة لبحث امكانية منأقشة عقد اجتماع يحدد في ما بعد لمنأقشة قضايا مستقبلية، ثم يعود الى امريكا لمنأقشة هذا التصور مع مسؤولي منطقة الشرق الاوسط في وزارة الخارجية، حيث يضيفون ملاحظاتهم ومرئياتهم، بعد ذلك يتوجه المبعوث الى وزير الخارجية نفسه الذي يدخل بدوره ملاحظاته ومرئياته على مشروع التصور اياه، وعندما يسمح جدول الرئيس الامريكي فإن التصور يعرض عليه وهو ايضا لا يمكن ان يقطع بأمر بدون الاستعانة بمرئيات طاقم المستشارين وقد تقترح عليه مستشارته لشؤون الامن القومي كونداليزا رايس ان الامر كله مضيعة لوقتها ووقت الرئيس وعلى كل حال - وتهمس في اذن الرئيس - بأن الفلسطينيين ارهابيون والافضل في رأيها ان يتركهم لاسرائيل التي اثبتت في اكثر من مرة قدرتها على تصفيتهم تدريجيا وبدون ضجة، هذا اذا لم يطرأ في هذا العالم الطويل العريض أمر آخر يستولي على اهتمام الرئيس، كدورة انتخابية هنا او هناك او زيارة رسمية او مؤتمر دولي، فضلا عن ان تقوم حرب اقليمية في هذا الركن من العالم او ذاك. وهذه كلها امور تؤدي الى تأجيل هذه الزيارة او تعطيل تلك الرحلة او تأخير ذلك الاجتماع ويمضي الزمن وتتراكم السنون وسلسلة التضحيات مستمرة وانهار الدماء متدفقة. ولا اعتذر عن هذا العرض الهزلي فهذا ما درجنا على تجرعه صباح مساء منذ زيارة السادات لتل ابيب.

هذا مجرد نموذج واحد لانماط التعامل الاسرائيلي مع القضية الفلسطينية في المحافل الدولية لاعطاء انطباع بأنها جادة في البحث عن حلول، وهي في الحقيقة معنية فقط بسرقة الزمن زمننا نحن والهائنا بمعارك جانبية صغرى وهامشية وتوهمنا بربحها لكي ننسى الخسارة الكبرى، فقد درجت اسرائيل على انتقاء جزئية هامشية من هذه الخطة او ذلك الاقتراح وتضخيمها واضفاء الصفة المصيرية عليه وعقد اللقاءات في سلسلة لا تكاد تنتهي وترتيب المؤتمرات والمقابلات الصحفية لتوهمنا وتوهم العالم انها تقدم تضحيات كبيرة من اجل الفلسطينيين، ولكي تنسينا وتنسي العالم كله ان الارض كلها من البحر الى النهر هي ارض فلسطينية. ولكي تنسينا وتنسي العالم كله ان الحركة الصهيونية برمتها ليست سوى افراز للعنصرية الاوروبية وفشل العقلية اليهودية في التعايش ضمن تلك المجتمعات ونزوعها دائما وحيث ما كانت الى التقوقع والانعزال.

واسرائيل تعمد الى اتخاذ هذا الاسلوب القائم على الاستدراج والتغرير والخداع لاعتقادها بأنه اسلوب ناجع يعينها على تحقيق اهدافها وتكريس مكتسباتها، كما تعتبر هذا الاسلوب وامثاله سلعة نافقة في سوق دعاية هي واعوانها المروج الرئيس فيها، وطبعا ليقينها بأن الفلسطينيين ومن ورائهم الدول العربية لا يمثلون بعد اي خطر على هذه الاستراتيجية.

وعليه فمن هنا مبعث خوفي وسبب اشفاقي وخشيتي من ان نستدرج ويغرر بنا ولذلك فإنني اقول ولا امل التكرار ان اهمية هذا المشروع القديم الجديد تكمن في كليته ووحدته وترابطه، فاذا سمحنا لاسرائيل او اعوانها الكثيرين المتغلغلين في مختلف الحكومات الغربية في شكل وزراء ومساعدين ومستشارين بتفكيكه وبعثرته فإنني على يقين ان هذا سوف يقودنا الى غياهب التيه مرة اخرى. وسوف تقودنا اسرائيل بابتسامة عريضة الى دوامات التفاوضات المرحلية وتعدد الملفات المفتوحة، وسوف يسخر منا شارون وقبيله، وسوف تستهين بنا الامم، ولن يقيم احد لنا وزنا. ولا شك عندي ان اسرائيل سوف تبدي ترحيبا مشوبا بالحذر وسوف تطالب بلقاء رسمي تستجلي فيه بعض الجوانب وتستوضح فيه بعض فقرات الاقتراح. وهدفها الاساسي ليس الاستجلاء ولا الاستيضاح فهذا يمكن ان يتم عن طريق تبادل الخطابات الرسمية وانما هدفها الحقيقي اختراق حاجز المقاطعة السعودية، ولا شيء احب الى الحكومة الاسرائيلية والصهيونية العالمية من ان تظهر على نشرات التلفزيون المسائية وعلى الصفحات الاولى من الصحف اليومية صور الامير عبد الله بن عبد العزيز بهيبته وشموخه، وهو يصافح شارون او احد وزرائه، اذا اخذت اسرائيل هذه الصورة فماذا يبقى لنا وعلى ماذا نفاوض. سوف لن تهتم بعد ذلك بأي شيء ولماذا تهتم وكل الصيد في جوف الفراء. وينبغي ان لا تعطى اسرائيل اي شيء مهما ظهر على السطح انه شكلي حتى يتم التوقيع على الاتفاق بكل حذافيره وملحقاته (وآه ثم آه من الملحقات)، بعد ذلك سوف تجد كل الاطراف متسعا للصور والمصافحات.

وعلى الرغم من هذا كله فإنه ليحدوني امل كبير في الامير عبد الله بن عبد العزيز وفي حنكته وعمق تجربته السياسية وهو ابن بجدتها، ولي عظيم الثقة في مقدرة الامير على المحافظة على مصداقية مبادرته وشرف عهدته، فهو الآن رجل اللحظة ومناط آمال الأمة.

* عميد أكاديمية الملك فهد - لندن.

Share >> <
Tweet

بريد طباعة